

والنعيم، والريحان: الرزق.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أُمَّةٍ أَلْبِينًا ﴿١٦﴾ سَلَكْنَاكَ مِنْ أُمَّةٍ أَلْبِينًا ﴿١٧﴾
﴿١٦﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَلْمَكْدِينِ أَلْبِينًا ﴿١٧﴾.

﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي: فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليك. كقوله تعالى: ﴿إلا قبيلاً سلاماً سلاماً﴾.

فَرَأَى مِنْ جَبْرِ ﴿١٧﴾ وَنَصِيحَةَ جَبْرِ ﴿١٨﴾.

﴿فنزل من حميم﴾ كقوله تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ وقرئ: بالتخفيف و«تصلية جحيم» قرئت بالرفع والجر عطفًا على «نزل» و«حميم».

إِنَّا هَذَا لَمَوْحٌ أَلْبِينٌ ﴿١٨﴾ سَمِعَ بِأَمْرٍ رَبِّكَ أَلْبِينٌ ﴿١٩﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿لهو حق اليقين﴾ أي: الحق الثابت من اليقين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحديد مكية

سَمِعَ يَوْمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ أَلْمَبْرُؤُ الْكَلِيمِ ﴿١﴾.

جاء في بعض الفواتح سَمِعَ على لفظ الماضي، وفي بعضها على لفظ المضارع، وكل واحد منهما معناه: أن من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبّحه وبنكحه ونلك هجيره ودينه. وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى: ﴿وتسبحون﴾^(٢) وأصله التعدي بنفسه؛ لأن معنى سبّحته بعدته عن السوء، منقول من سبّح: إذا ذهب وبعث. فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له، وإما أن يراد بـ «سبّح لله» أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً.

﴿ما في السموات والأرض﴾ ما يتأتى منه التسبيح ويصح.

لَهُ مَلَكٌ أَلْمَكْرُؤِ وَالْأَرْضِ يَمِينًا وَهُوَ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾.

فإن قُلْتُ: ما محل «يحيي»؟ قُلْتُ: يجوز أن لا يكون له محل. ويكون جملة برأسها.

كقوله: ﴿له ملك السموات﴾ وأن يكون مرفوعاً على هو يحيي ويميت ومنصوباً حالاً من المجرور في له والجار عاملاً فيها. ومعناه: يحيي النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء.

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِمَلَكِهِ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَزُلْ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُ أَيَّنَّ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ ﴿٤﴾ لَمْ تَكُنْ لَكَ سَمَوَاتٌ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ رُزِقَ الْأُمُورَ ﴿٥﴾ يُؤْتِي الْبَيْتَ فِي الْبَهْرِ وَيُؤْتِي الْبَهْرَ فِي الْبَيْتِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾.

﴿هو الأول﴾ هو القديم الذي كان قبل كل شيء و﴿والآخر﴾ الذي يبقى بعد هلاك كل شيء و﴿الظاهر﴾ بالادلة الدالة عليه و﴿الباطن﴾ لكونه غير مدرك بالحواس.

فإن قُلْتُ: فما معنى الواو؟ قُلْتُ: الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولى والأخرى، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، أما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولى ومجموع الصفتين الأخريين. فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو في جميعها ظاهر وباطن، جامع للظهور بالادلة والخفاء فلا يدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوز إبراكه في الآخرة بالحاسة. وقيل: ﴿الظاهر﴾ العالي على كل شيء الغالب له، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه، و﴿الباطن﴾ الذي بطن كل شيء أي: علم باطنه وليس بذاك مع العبد عن الظاهر المفهوم.

أَمَرْنَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَعُوا مِمَّا جَمَعْتُمْ شَتَّىٰ لَقَدْ فِيهِ قَالَتِينَ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ وَأَنْفَعُوا لِمَنْ أَمَرَكُمُ بِهِ ﴿٧﴾.

﴿مستخلفين فيه﴾ يعني: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما مولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب. فانفقوا منها في حقوق الله وليهن عليكم الاتفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى من بعدكم، فلا تبخلوا به وانفقوا بالاتفاق منها أنفسكم.

وَمَا لَكُمْ لَأَنْ تَدْعُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾.

﴿لا تؤمنون﴾ حال من معنى الفعل في ما لكم كما تقول مالك قائماً بمعنى ما تصنع قائماً؟ أي: وما لكم كافرين بالله. والواو في ﴿والرسول يدعوكم﴾ أو الحال فهما حالان متداخلتان. وقرئ: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله والرسول يدعوكم﴾ والمعنى: وأي عذر لكم في

(2) سورة الفتح، الآية: 9.

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تعظيم القرآن فضل في فضائل السور والآيات (الحديث رقم: 2498).

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فُضِّلْتُمْ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفِهِمْ بَشْرَكُمْ آيَةً
حَسَّتْ بُحْرَىٰ مِنَ تَحِيَّا الْأَكْثَرِ خَلِيدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾.

القرض الحسن: الإنفاق في سبيله شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز؛ لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكانه أقرضه إياه ﴿فِيضَاعُفَ لَهُ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً ﴿أَضْعَافًا﴾ من فضله ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه. وقرئ: فيضعفه وقرئنا منصوبين على جواب الاستفهام والرفع عطف على يقرض أو على فهو يضاعفه.

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أو منصوب بإضمار أنكر تعظيماً لذلك اليوم. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لَأَنَّ السَّعْدَاءِ يُؤْتُونَ صَحَافَةَ أَعْمَالِهِمْ مِنْ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ، كَمَا أَنَّ الْأَشْقِيَاءَ يُؤْتُونَهَا مِنْ شِمَالَتِهِمْ وَمِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ فَجَعَلَ النُّورَ فِي الْجِهَتَيْنِ شِعَارًا لَهُمْ آيَةً لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ بِحَسَنَاتِهِمْ سَعَدُوا وَبِصَحَافَتِهِمْ الْبَيْضَ أَقْلَحُوا، فَإِذَا ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَرُوا عَلَى الصِّرَاطِ يَسْعُونَ، سَعَىٰ بِسَعْيِهِمْ ذَلِكَ النُّورَ جَنِيْبًا لَهُمْ وَمَتَقَدِّمًا. ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة ﴿بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ وقرئ: ذلك الفوز.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالْمُنِفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسِي مِنْ نُوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الرِّمَّةِ وَظَلَمَهُمْ مِنْ بَيْنِهِ الْعَدَابُ ﴿١٣﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ﴿انظرون﴾ انتظرونا؛ لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب ترف بهم وهؤلاء مشاة. أو انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به. وقرئ: انظرونا من النظرة وهي الإهمال. جعل اتنادهم في الماضي إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم. ﴿نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به. ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ طرد لهم وتهكم بهم. أي: ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك، فمن ثم يقتبس أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه وهو الإيمان، أو ارجعوا خائبين وتحنوا عنا فالتمسوا نوراً آخر فلا سبيل لكم إلى هذا النور، وقد علموا أن لا نور وراءهم

ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبئكم عليه ويتلو عليكم الكتاب المناطق بالبراهمين والحجج. وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان حيث ركب فيكم العقول⁽¹⁾ ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر وإزاح غلكم فإذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول فما لكم لا تؤمنون ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. وقرئ: أخذ ميثاقكم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يُغِيبُ يَنْتَظِرُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾.

﴿ليخرجكم﴾ الله بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان أو ليخرجكم الرسول بدعوته. ﴿الرءوف﴾ وقرئ: لرؤوف.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُبْشِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَبْرِئُ الْمُشْرِكِينَ وَالْأَرْضَ لَا يَسْتَوِي سِكْرًا مِّنْ أَنْفَقٍ مِّنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَدْ أَوْلَيْتُكَ أَنْظَمَ دَرَجَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّنْ بَدَأَ وَتَوَلَّوْا وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٥﴾.

﴿وما لكم لا تنفقوا﴾ في أن لا تنفقوا ﴿وشه ميراث السموات والأرض﴾ يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باقٍ لأحد من مال وغيره. يعني: وأي غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله، والله مهلككم فوارث أموالكم وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله. ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ﴾ قبل فتح مكة قبل عز الإسلام وقوة أهله ودخول الناس في بين الله أفواجاً وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»⁽²⁾ ﴿أعظم درجة﴾ وقرئ: قبل الفتح ﴿وكلا﴾ وكل واحد من الفريقين ﴿وعد الله الحسنى﴾ أي: المثوبة الحسنى وهي: الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرئ: بالرفع على وكل وعده الله. وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لأنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل الله.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» (الحديث رقم: 3673)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة (الحديث رقم: 222 - 2541)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 4658)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل من بايع تحت الشجرة (الحديث رقم: 3861)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أهل بدر (الحديث رقم: 161).

(1) قال أحمد: وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه الله في آية غير هذه، إذ يقول تعالى: ﴿وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا آبَاءَهُمْ حُلُمَاءً سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النور: 24) ولقد يربيني منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلاً ووقوعها بالسمع قطعاً إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخيلاً، فالقاعدة التي تعتمد عليها كي لا يضر ك ما يومئ إليه، أن ما كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع وجب حمله على ظاهره، والله الموفق.

القرآن، وعن الحسن رضي الله عنه: أما والله لقد استبطاهم وهم يقرؤون من القرآن أقل مما تقرأون فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسوق. وعن أبي بكر رضي الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءً شديداً، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب. وقرئ: نزل ونزل وأنزل ﴿ولا يكونوا﴾ عطف على تخشع. وقرئ: بالتاء على الالتفات، ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا. وذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهادتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورتت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره.

فإن قلت: ما معنى لنكر الله وما نزل من الحق؟ **قلت:** يجوز أن يراد بالنكر وبما نزل من الحق القرآن؛ لأنه جامع للأمرين للنكر والموعظة، وأنه حق نازل من السماء وأن يراد خشوعها إذا نكر الله وإذا تلى القرآن بقوله تعالى: ﴿إذا نكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾⁽³⁾ أراد بالآمد الأجل كقوله: إذا انتهى أمده. وقرئ: الأمد أي: الوقت الأطول. ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين.

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحِي الْأَرْضَ بَدَدَ مَوْجٍ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾

اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها؛ قيل: هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض.

إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ وَرَسَا حَسَبًا يَصُبُّمْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٨﴾

المصدقين المتصدقين وقرئ: على الأصل والمصدقين من صدق، وهم الذين صدقوا الله ورسوله، يعني: المؤمنين.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿واقترضوا﴾؟ **قلت:** على معنى الفعل في المصدقين؛ لأن اللام بمعنى: الذين واسم الفاعل بمعنى صدقوا كأنه قيل: إن الذين صدقوا واقترضوا، والقرض الحسن أن يتصدق من الطبيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَاللَّهِدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وإنما هو تخييب وإقناظ لهم. ﴿فضرب بينهم بسور﴾ بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار. قيل: هو الأعراف لذلك السور ﴿باب﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿باطنه﴾ باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿وظاهره﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿من قبله﴾ من عنده ومن جهته ﴿العذاب﴾ وهو الظلمة والنار. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: فضرب بينهم على البناء للفاعل.

يُأَدَّبُهُمْ اللَّهُ تَعَالَى تَكُنْ مَكَّمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنًاؤُا أَنفُسِكُمْ وَتَرْتَمَتُمْ وَأَرْتَمْتُمْ وَعَرَّتْكُمْ الْأَمَانُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْمَرْزُورُ ﴿٧﴾

الم نكن معكم يريدون موافقتهم في الظاهر **ففتنتم أنفسكم** محنتموها بالنفاق وأهلكتموها **وتربصتكم** بالمؤمنين الدوائر **وغرتكم الأمانى** طول الأمل والطمع في امتداد الأعمار **حتى جاء أمر الله** وهو الموت **وغرتكم بالله الغرور** وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم. وقرئ: الغرور بالضم.

فَيَوْمَ لَا يُؤْعَدُّ سِكِّمْ فِدْبُهُ وَلَا مِنِ اللَّيْلِ كَرُورًا مَاؤُنْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَيَسُّرُ الْكَمِيرُ ﴿١٥﴾

فندية ما يفتدى به **هي مولاكم** قيل: هي أولى بكم وأنشد قول لبيد:

فعدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وامامها

وحقيقة مولاكم محرارك ومقمنكم أي: مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم. كما قيل: هو منتهى للكرم، أي: مكان لقول القائل إنه لكريم. ويجوز أن يراد هي ناصركم أي: لا ناصر لكم غيرها، والمراد: نفي الناصر على البنات. ونحوه قولهم أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع. ومنه قوله تعالى: ﴿يغيثوا بماء كالمهل﴾⁽¹⁾ وقيل: تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار.

اللَّهُ يَأْتِي الْبَلَاءَ مَأْتُوا أَن تَخْشَعُوا لَهُمْ لِيَصْخِرَ اللَّهُ وَمَا نَزَلَ مِنْ أَمْنٍ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَكَالَ عَتِيهِمْ أَلَمُدَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَتْ مِنْهُمْ قَسِيْقُونَ ﴿١٦﴾

الم يان من أتى الأمر يأتي إذا جاء إياه أي: وقته. وقرئ: ألم يئن، من أن يئين بمعنى: أتى يأتي المأ يان قيل: كانوا مجذبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت. وعن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين⁽²⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله استبطا قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشر من نزول

(3) سورة الانفال، الآية: 2.

(1) سورة الكهف، الآية: 29.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿الم يان لمذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لنكر الله﴾ (الحديث رقم: رقم 24 - 3027).

فعالة. أي: وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم ونحوه في صفة أصحاب رسول الله ﷺ رحماء بينهم. والرهبانية تروهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة. وذلك أنّ الجبارة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى فقاتلوه ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان⁽³⁾ وهو الخائف. فعلم من رهب كخشيان من خشى. وقرئ: رهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان. وانتصابها بفعل مضمر⁽⁴⁾ يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ﴿ابتدعوها﴾ يعني: وأحدثوها من عند أنفسهم ونزروها. ﴿ما كتبناها عليهم﴾ لم نرفضها نحن عليهم ﴿إلا لبتغاء رضوان الله﴾ استثناء منقطع أي: ولكنهم ابتدعوها لبتغاء رضوان الله ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ كما يجب على الناصر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكته. ﴿فأتينا الذين آمنوا﴾ يريد: أهل الرحمة والرافة الذين اتبعوا عيسى ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ الذين لم يحافظوا على نذره ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وابتدعوها صفة لها في محل النصب أي: وجعلنا في قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم بمعنى: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحدثائها ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب. على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه، فما رعوها جميعاً حق رعايتها ولكن بعضهم. فأتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية أجرهم وكثير منهم فاسقون، وهم الذين لم يراعوها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَجَمَعْنَا لَكُمْ نُورًا نَشْرُقُ بِهِ، وَنَمُرُّ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يجوز أن يكون خطاباً للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا من غيرهم فإن كان خطاباً للمؤمنين أهل الكتاب فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا

للكتاب﴾ أي: الوحي ﴿والميزان﴾ روي أنّ جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به ﴿وانزلنا الحديد﴾ قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السنندان والكلبتان والمبقة والمطرقة والإبرة. وروي: ومعه المرّ والمسحاة. وعن النبي ﷺ: «إنّ الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد والنار والماء والملح»⁽¹⁾. وعن الحسن: وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى: ﴿وانزل لكم من الأنعام»⁽²⁾ وذلك أنّ أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه ﴿فيه بأس شديد﴾ وهو القتال به ﴿ومنافع للناس﴾ في مصالحهم ومعاشهم وصنائعهم فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد. ﴿وليعلم الله من ينصره ورسوله﴾ باستعمال السيوف والرمح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين. ﴿بالغيب﴾ غائباً عنهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه ﴿إنّ الله قوي عزيز﴾ غني بقدرته وعزته في إهلاك من يريد هلاكه عنهم، وإنما كلفهم الجهاد ليبتغوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُنْتَصِرٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿والكتاب﴾ والوحي وعن ابن عباس: الخط بالقلم يقال: كتب كتاباً وكتابة. ﴿فمنهم﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم. وقد دل عليهم نكر الإرسال والمرسلين وهذا تفصيل لحالهم. أي: فمنهم مهتد ومنهم فاسق والغلبة للفساق.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ مَائِدِهِمْ مِزَانًا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَجَعَلْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَةٌ أَتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

قرأ الحسن: الإنجيل بفتح الهمزة، وأمره أهون من أمر البرطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء؛ لأنّ الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب. وقرئ: رافة على

= منعه أبو علي من جعلها معطوفة أعز ذلك، بتحريف الجعل إلى التوفيق فراراً مما فرّ منه أبو علي من اعتقاد أن ذلك مخلوق لله تعالى وجنوحاً إلى الإشرار، واعتقاد أن ما يفعلونه هم لا يفعله الله تعالى ولا يخلقه، وكلّى بما في هذه الآية دليلاً بعد الأمانة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقدها، فإنه نكر محل الرحمة والرافة مع العلم بأن محلها القلب، فجعل قوله: ﴿في قلوب الذين اتبعوه﴾ تأكيداً لخلقه هذه المعاني، وتصويراً لمعنى الخلق بنكر محله، ولو كان المراد أمراً غير مخلوق في قلوبهم لله تعالى كما زعموا، لم يبق لقوله: ﴿في قلوب الذين اتبعوه﴾ موقع، ويأبى الله أن يشتمل كتابه الكريم على ما لا موقع له، اللهمنا الحجة وأنهج بنا واضح المحجة، إنه ولي التوفيق واهب التحفيق.

(1) أخرجه الثعلبي وهو في الفردوس. وأخرجه الزليعي 418/3.

(2) سورة الزمر، الآية: 6.

(3) قال أحمد: وفيه إشكال، فإنّ النسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول عندهم حتى يرد إلى مفردة، إلا أن يقال: إنه لما صار الرهبان طائفة مخصوصة، صار هذا الاسم، وإن كان جمعاً كالعلم لهم فلحق بانصاري ومدائني وأعرابي.

(4) قال أحمد: في إعراب هذه الآية تورط أبو علي الفارسي، وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة، فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره الظاهر وعلل امتناع العطف، فقال: ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على جعلنا مع وصفها بقوله: ابتدعوها؛ لأنّ ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم، والزمخشري رد: أيضاً مورده التذميم وأسلمه شيطانه الرجيم، فلما أجاز ما =

وقرى: أن لا يقدرُوا ﴿بِعِيدِ اللَّهِ﴾ في ملكه وتصرفه واليد مثل ﴿يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسوله»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المجادلة مدنية

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَاذِرٌ كَمَا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

﴿قد سمع الله﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»⁽⁴⁾. لقد كلمت المجادلة رسول الله ﷺ في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع وقد سمع لها،⁽⁵⁾ وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها. وقال: قد سمع الله لها. وقرى: تحاورك أي: تراجعك الكلام. وتحاولك أي: تسائلك. وهي: «خولة بنت ثعلبة امرأة أوس»⁽⁶⁾ بن الصامت أخي عبادة. رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم فلما سلمت راودها فابت فغضب وكان به خفة ولمم فظاهر منها. فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما خلا سني ونثرت بطني أي: كثر ولدي جعلني عليه كآته. وروي أنها قالت له: إن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا. فقال: «ما عندي في امرك شيء» وروي أنه قال لها: «حرمت عليه»، فقالت يا رسول الله ما نكر طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إلي. فقال حرمت عليه. فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي. كلما قال رسول الله ﷺ: حرمت عليه هتفت وشكت إلى الله فنزلت ﴿في زوجها﴾ في شأنه⁽⁷⁾. ومعناه ﴿إن الله سميع بصير﴾ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر.

فإن قلت: ما معنى ﴿قد﴾ في قوله ﴿قد سمع﴾؟ قلت: معناه التوقع لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها.

الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّنْتُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتُمُوهَا وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مُتَكَبِّرُونَ مِنَ الْقَوْلِ زُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعْرُوفٌ عَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ

بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿بِؤْتِكُمْ﴾ الله ﴿كفليين﴾ أي: نصيبين ﴿من رحمته﴾ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله. ﴿ويجعل لكم﴾ يوم القيامة ﴿نورا تمشون به﴾ وهو النور المنكسر في قوله: ﴿يسعى نورهم﴾ و﴿يغفر لكم﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي.

إِنَّمَا يَمَلِكُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا يَدْرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَإِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾.

﴿لئلا يعلم﴾ ليعلم ﴿أهل الكتاب﴾ الذين لم يسلموا ولا مزيدة ﴿إلا يقدرُونَ﴾ أن مخففة من الثقيلة أصله أنه لا يقدرُونَ يعني: أن الشأن لا يقدرُونَ ﴿على شيء من فضل الله﴾ أي: لا ينالون شيئاً مما نكر من فضله من الكفليين والنور والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلاً قط. وإن كان خطاباً لغيرهم فالمعنى: اتقوا الله وثابتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفليين في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾⁽¹⁾ ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله. روي: أن رسول الله ﷺ بعث جعفرًا رضي الله عنه في سبعين راكبًا إلى النجاشي يدعوه، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له. فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً: انذن لنا في الوفادة على رسول الله ﷺ فإنن لهم. فقدموا مع جعفر وقد تهيأ لوقعة أحد فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة استأننوا رسول الله ﷺ فرجعوا وقدموا بأموال لهم فأسوا بها المسلمين. فأنزل: ﴿الله الذين آتيناكم الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله يؤتون أجرهم مرتين فخروا على المسلمين وقالوا: أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين. وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كاجرهم فما فضلكم علينا فنزلت⁽²⁾. وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت. وقرى: لكي يعلم ولكيلا يعلم وليعلم لأن يعلم بإدغام النون في الياء، ولين يعلم بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء، وعن الحسن: ليلا يعلم بفتح اللام وسكون الياء. ورواه قطرب بكسر اللام وقيل: في وجهها حذف الهمزة وأن وادغمت نونها في لام لا فصار لا ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء كقولهم: ديوان وقيراط. ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجر الفتح كما أنشد:

أريد لا أنسى نكرها

(1) سورة القصص، الآية: 54.
(2) رواه الطبري في تفسيره. وأخرجه الزيلعي 419/3.
(3) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه والزيلعي 420/3.
(4) قال أحمد: ولقد استدل به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذمي، وليس بقوي؛ لأنه غير المقصود.
(5) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (الحديث رقم: 3460)، وأخرجه ابن ماجه المقدمة، باب: فيما نكرت الجهمية (الحديث رقم: 188)، وأخرجه أحمد في المسند 46/6.
(6) رواه الدارقطني في السنن 316/3 (الحديث رقم: 259).
(7) رواه الطبري في تفسيره، وأخرجه الزيلعي 423/3.